وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المادة : علم الصوت

جامعة الانبار - كلية الآداب
أستاذ المادة : أ.د. علي حسين خضير

قسم اللغة العربية
(٢٠١٩ - ٢٠٢٠) الفصل الثاني

المحاضرة : (الأولى)

أولا : (إرهاصات الدرس الصوتي عند العرب)

يشكل الصوت الإنساني المادة الأولى في الدراسات اللغوية لأي لسان من الألسن البشرية ، وتعد الدراسات الصوتية قديما من أصل العلوم عند العرب ؛ لأنها اتصلت مباشرة بتلاوة القرآن الكريم لضبط أدائه .

لقد كان العرب سبّاقين إلى دراسة أصوات لغتهم ، فقدموا في هذا الشأن بحوثا قيّمة شهد لها المحدثون إذ وصفوا لنا الصّوت اللغوية وصفا دقيقا ، على الرغم من اعتمادهم فقط على الملاحظ الذاتية التي لم تتعد الحسّ الدقيق ، والأذن الموسيقية المرهفة ، ومع ذلك بدت فروق في دراسة بعض المسائل الصوتية بينهم وبين المحدثين.

إنّ أوّل درس للأصوات عند العرب أنجزه الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ) في معجمه (العين) الذي يعدّ المصدر الأول في الدراسات اللغوية والصوتية قبل (الكتاب)لسيبويه ، تلميذ الخليل ، الذي ضم كثيرا من آراء أستاذه .

وتعدّ دراسة سيبويه من أصح الدراسات المتقدمة وما زالت تعد مصدرا أسياسا عند المحدثين لدراستهم اللسانية والصوتية في العربية ، ولم تتوقف الدراسات الصوتية عند هذين العالمين ، بل تبعهما في ذلك ابن جني الذي أكمل البحث في هذا

المنحى في ضوء كتابيه (سر صناعة الإعراب) و (الخصائص) .

وما دام هذا النوع من الدراسات جاء من أوّل الأمر ليحفظ القرآن الكريم بوصفه نصا مقدسا ، فقد انصبّ اهتمام العلماء في هذا السياق على كيفيات أداء هذا النص تجويدا وترتيلا ، فتعمّقوا في دراسة علمي التجويد والترتيل ، وضبط أسسها العلمية فدرسوا في الأول حظ الصّوت ومستحقه (الصفات الذاتية والعرضية) ، ودرسوا في الثاني حظ اللسان من تصحيح الأصوات ، وحظ العقل من تفسير المعاني وتحديد الدلالات ، ثم حظ القلب من الاتعاظ والتأثر ، ليفرقوا بعد ذلك بين القراءات المشهورة منها ، والمتواترة والشاذة .

ويضاف إلى جهود علماء اللغة ما استحدثه النقاد والبلاغيون من نظريات في الفصاحة وأضربها ، غير أن الدرس الصوتي بقي يأخذ في أغلبه من علمي الصرف والتجويد ، وما أنجزه اللغويون العرب في هذا الموضوع .

ولكن على الرغم من ذلك ما زال الدرس الصوتي عند المحدثين يعاني قصورا ، إذ يستنسخ في الغالب طروحات القدامى ، في رأي أحد الدارسين ، ما جعل الدراسات الفنولوجية شبه منعدمة .

ثانيا :

لم يرد مصطلح الصوت بالمفهوم الحديث عند القدامى ، بل لم يفرّق علماء العربية وغيرهم من العلماء بين الصوت والحرف ، أوبين ما هو مادي ومحسوس وما هو معنوي مفهوم ، أو بين ما هو وحدة صوتية مجرّدة وبين ما هو وحدة صوتية منغّمة ، وعلى الرغم مما تميزت به دراسات الخليل وسيبويه واتباعهما من وصف دقيق لمخارج الأصوات وصفاتها ،

فإنهم لم يميزوا بين الصوت والحرف باستثناء ابن جني .

ويتح ذلك في معظم تعاريفهم ، يقول سيبويه :"فالمجهور حرف أُشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت".

فمصطلح الصوت -هنا- أقرب إلى النفس وما يتعلق بمحدثات الصوت ، ومنه إلى تلك الوحدة الذهنية المجردة التي حددّها المحدثون-الغربيون-في ضوء مصطلحات دقيقة ، وينطبق هذا على التعاريف التي جاء بها سيبويه .

وقد بيّن الخليل وسيبويه أن حروف العربية تسعة وعشرون ، وهي أصول :"وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هنّ فروع ، وأصلها من التسعة والعشرين... وتكون اثنين وأربعين حرفا ... وهذه الحروف التي تمّمتها اثنين وأربعين جيدها ورديؤها أصلها التسعة والعشرون ، لا تتبيّن إلّا بالمشافهة ".

وقد نبني على هذا أنّ فكرة الصوت بحسبه وحدة صوتية مجردة ، وجدت عند القدامى ، لكن مضمونها لم يتضح ، فلم يفرّق حينها بين الصوت والحرف بوصفه رمزا ثابتا.

لم يرد الصوت -إذن- عند القدامى ، بالمفهوم الذي جاء به المحدثون، واصطلح عليه باسم (الفونيم phoneme)، أو (الوحدة الصوتية) التي تضم مجموعة من الأداءات المختلفة التي تمثل صوتا واحدا ، كأن تجمّع الأصوات المختلفة الدالة على (النون)، مع اختلاف المخارج فيها ، فيجعلها تحت عنوان واحد هو (النون).

وبقي الحال على هذا إلى أن جاء ابن جني مع مطلع القرن الرابع الهجري ، فأعطى الصوت تعريفا دقيقا ، فرّق من خلاله بينه وبين الحرف باعتبارهما وجهان لعملة واحدة :"اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا ، حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا ، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها".

واضح من كلامه أن الصوت يخرج مع النفس ، ثم يضيف أن التعرف على صدى الحرف يقتضي تسكين هذاالأخير مع إضافة همزة القطع في أوّله ، وعلّته في ذلك أن: "الحركة تجذب الحرف إلى صوت الحرف الذي هو بعضه" ، فالوجه الواحد عنده لا يمكن أن يحدّد (الصوت والحرف)، والطريقة التي وضعها ابن جني لمعرفة صدى الحرف حذرت منه الدراسات الحديثة لأنها طريقة غير علمية ودقيقة والحرف حينها :"لا يتحقق فيه الاستقلال الذي هو أساس التجربة الصحيحة".

ثالثا: ترتيب الأصوات عند علماء العربية .

تميّز الدرس الصوتي عند الخليل وغيره من علماء العربية الذين جاءوا بعده بالتحليل الموسيقي الذي قام على تحليل الأصوات، وتحديدها مخرجا وصفة مكتفين بهاتين الدعامتين لتحديد ومعرفة جماليات الصوت التعبيرية التي تميّزه عن باقي الأصوات اللغوية الأخرى سواء أكانت مفردة أم داخل النسق الصوتي .

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر أن الخليل وسيبويه كانا دقيقي الحس إذ أعطى الخليل لترتيب الأصوات طابعا جديدا ، لم يسبقه-كما هو معلوم-

أحد إلى ذلك ، فرتّب الأصوات بحسب مخارجها لإصدار صوت ما ، ثم بحسب مدى وقع هذه الأصوات في الأذن ، وقد اتبع الخليل في تقييد المادة وضبط وسائل استفاد منها الخلف ، وما زالت مقبولة إلى يومنا ، وقد سار سيبويه على نهجه.

ورتّب الخليل الأصوات في نظامه المبتدع على النحو الاتي :" (العين الحاء الهاء الخاء الغين) (القاف الكاف) (الجيم الشين الضاد) (الصاد السين الزاي) (الظاء الثاء الذال) (الراء اللام النون) (الفاء الباء الميم) (الواو الألِف الياء الهمزة) ".

وكان الخليل قد فكّر في ترتيب مادة كتابه (العين) وأراد أن يجعلها على الترتيب الهجائي الشائع المعروف ، فبدأ بالهمزة فلما وجد صورتها تتغيّر كره البدء بها .

وكذلك لم يبدأ بالألف ولا الهاء ، وقال في علة ذلك :"ولم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف ، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء الكلمة ، ولا في اسم و لا فعل إلّا زائدة أو مبدلة ، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها ، فنزلت إلى الحيّز الثاني ، وفيه العين والحاء ، فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف".

وإذا كان مبدأ ترتيب الأصوات عند الخليل وسيبويه واحدا ، فإن الثاني صنّف الأصوات تصنيفا مغايرا لتصنيف أستاذه ، إذ بدأ بالهمزة وختمه بالواو ، وقال الهمزة :"...نبرة في الصدر تخرج باجتهاد ، وهي أبعد الحروف مخرجا".

فرتب الأصوات على الشكل الآتي :"الهمزة ، الألف ، والهاء ، والعين ، والحاء ، والخاء ، والغين ،

والكاف ، والقاف ، والضاد ، والجيم ، والشين ، والياء ، واللام ، والراء ، والنون ، والطاء ، والدال ، والتاء ، والصاد ، والزاي ، والسين ، والظاء ، والذال ، والثاء ، والفاء ، والباء ، والميم ، والواو ".

فهناك تقديم وتأخير في بعض الأصوات موازنة بين تصنيفه وتصنيف أستاذه وتبع سيبويه في هذا كل من ابن جني (الخصائص) ، و(سر صناعة الإعراب)، ابن الجزري (النشر في القراءات العشر)، عبد القاهر الجرجاني (المقتصد)، والخفاجي (سر الفصاحة).

وخالف ابن جني سيبويه في ترتيب أصوات الصفير (السين، والزاي ، والصاد).

ويرى الدكتور سعيد النعيمي أن الاختلاف في ترتيب حروف الصفير ناجم عن أحد الأمرين :

إما أن يكون من عمل النسّاخ ، وإما أن يكون سيبويه أو ابن جني قد أحسّ أحدهما بأن الثلاثة من مخرج واحد ، لا يتقدم أيّ منها على غيره ، والفرق بينهما في الصفة ، فالزاي من مخرج السين إلّا أنها مجهورة ، والسين مهموسة ، والصاد من مخرج السين ، وهي مهموسة أيضا إلّا أنها تختلف عن السين بالإطباق .

والملاحظ أن سيبويه قد أضاف إلى هذه الحروف الأصول فروعا أخرى فقال :"وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هن فروع ، وأصلها من التسعة والعشرين وهي كثيرة يؤخذ بها ، وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار ...".

فالحرف عنده بهذا الشكل لا يتوقف عند ذاك الرمز الكتابي الثابت المتواضع عليه ، بل يتعداه إلى وحدات أداتيه مختلفة تعادل في الدراسات

الفونولوجية مصطلح (الفونيم)، واهتمام القدامى بهذه الفروع قد يكون له دخل كبير في ظاهرة الانسجام الصوتي .

ثم يواصل سيبويه حديثة عن هذه الفروع فيقول : "وتكون اثنين وأربعين حرفا بحروف غير مستحسنة ، ولا كثيرة في لغة من ترضى عربيته ، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر ...، وهي الكاف التي بين الجيم والكاف ، الجيم التي كالكاف والجيم التي كالشين والضاد الضعيفة ، والصاد التي كالسين ، والطاء التي كالتاء ، والظاء التي كالثاء ، والباء التي كالفاء".

وهذه الأصوات التي حصرها سيبويه بجيّدها ورديئها ، أصلها التسعة والعشرون ، فلا تتبيّن إلّا بالمشابهة ، وقد اتجه سيبويه في استنباط الحروف من الأصوات عكس ما نهجه المحدثون : البحث عن الأصوات ، ثم ملاحظتها ثم وصفها فتبويبها في مجموعات تسمى كلَّ مجموعة منها حرفا (الرمز الكتابي المتعارف عليه)، وصوتا (الوحدات الصوتية الذهنية المجردة) فمثلا الأصوات المختلفة الدالة على النون باختلافها تجمع تحت باب واحد هو (النون)بينما وضع القدامى لكل حرف رمزه ، ولا يهم ما يندرج تحت هذا الحرف من أصوات مختلفة عند الأداء ، وذهاب سيبويه في هذا المنحى إنما هو راجع إلى اعتباره الحرف والصوت شيئا واحدا شأنه في ذلك شأن غيره من اللغويين ، إلى أن جاء ابن جني (القرن الرابع) بفكرة الفرق بين المصطلحين.